

سورة الإسراء

﴿الآيات: 37 - 40﴾

الدرس

11

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف بعض آداب المشي ومخاطر الكبر.
- 2- أن أستنتج من الآيات تنزيه الله عز وجل عن الشريك والولد.
- 3- أن أتمثل خلق التواضع، وأتجنب كل سلوك يوحى بالتكبر والتعالي على الناس.

تمهيد

بعد أن نهى الله تعالى الناس عن اتباع ما لا يعلمون من الأقوال، نهى في هذه الآيات عن التكبر ومشية الخيلاء، وأمر أن يلتزم المسلم بقيم التواضع مع الله ومع الناس، ثم نبه على أن تلك الأوامر والنواهي هي وحي إلهي وحكم ربانية، وهي أسس سعادة الدارين، ثم ختمت الآيات بتنزيه الله عز وجل عن الشريك والولد.

فلماذا نهى الله عز وجل عن المرح الخيلاء؟ وما هو الجزاء الأخروي لمن يجعل مع الله إلهاً آخر؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَ تَخْرِقُ الْأَرْضَ وَلَ تَبْلُغُ الْجِبَالَ هُولاً ۚ كُلُّ الْمَا كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ۝۳۸﴾ ۝۳۷ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۚ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ۚ آخَرَ فَتُلَفَّرَ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ۝۳۹﴾

أَقِمْ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ بِالنَّبِيِّ وَاتَّخِذْ مِنَ الْمَلَايِكَةِ إِنَّا لَنَّا أَنْتُمْ لَتَقُولُوا قَوْلًا

عَظِيمًا ﴿40﴾ [سورة الإسراء: 37 - 40]

الفهم

الشرح :

- ملوماً : مسرورا بدنياه مقبلا على راحته.
لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ : لن تقطع الأرض وتمسحها بمشييك.
ملوماً : المعلوم الذي ينكر عليه ما فعله.
مَذْهُوراً : المدحور المهان المبعد من رحمة الله.

استخلاص المضامين :

- 1- عماذا نهى الله عز وجل في بداية الآيات؟
- 2- ماذا نسب مشركو العرب لله عز وجل ؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: النهي عن الكبر ومشية خيلاء:

قال تعالى: ﴿لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد الناس كلهم. وقرأ الجمهور ﴿مَرَحًا﴾ بفتح الميم والراء مصدر من مرح يمرح إذا صار مسرورا بدنياه مقبلا على راحته، فهذا هو المرح، فنهى الإنسان في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه. وقرئ " مرحا " بكسر الراء على بناء اسم الفاعل.

و﴿مَرَحاً﴾ مصدر وقع حالا من ضمير ﴿تَمْشِ﴾. ومجيء المصدر حالا كمجيئه صفة يراد منه المبالغة في الاتصاف. ويؤول باسم الفاعل، أي: لا تمش مارحاً، أي: مشية المارح، وهي المشية الدالة على كبرياء الماشي بتمايل وتبخر. ويجوز أن يكون مرحا مفعولا مطلقا لفعل ﴿تَمْشِ﴾ مبينا للنوع، أي: مشية ذي مرح، وإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي. ثم أكد تعالى النهي عن الخيلاء والتكبر فقال: ﴿إِنَّمَا لِي تَخْرُجَ الْأَرْضُ وَلِي تَبْلُغَ الْجِبَالُ هَوْلًا﴾ هذا تهكم بالمختال وتعليل للنهي السابق أي: إنك لن تقطع الأرض وتمسحها بمشيك، ولن تبلغ أطوال الجبال فتتالها طولا، فإذا كنت كذلك فقصرك نفسك على ما يوجب الحق من المشي والتصرف أولى وأحق.

قال ابن عطية: وإقبال الناس على الصيد ونحوه تنزهها دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وأما الرجل يستريح في اليوم النادر أو الساعة من يومه يجم بها نفسه في التفرج والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر كقراءة علم أو صلاة، فليس ذلك بداخل في هذه الآية. ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَا لِمَا كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر (سيئه) بإضافة سيء إلى الضمير، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (سيئة).

أما قراءة (سيئه) بالإضافة فهو اسم كان و"مكروها" خبرها، وقد تم توجيه معناها على أن الله تعالى ذكر قبل هذا أشياء، أمر ببعضها، ونهى عن بعضها، فيكون المعنى أن ما كان من تلك الخصال المذكورة سابقا من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى هذه الآية سيئة فهو مكروه عند الله، إذ لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة لوجب أن يقال: (مكروهة) بالتأنيث، وليس الأمر كذلك؛ لأنه تعالى قال: ﴿مَكْرُوهًا﴾. والقراءة بصيغة الإضافة تجعل المعنى: أن سيئ تلك الأقسام يكون مكروها، فيستقيم الكلام.

وأما قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو: (سيئة)، فهي خبر كان، واسمها ضمير مستتر. وقد تم توجيه معناها على وجوه:

الأول: أن الأوامر والنواهي السابقة تمت عند قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، ثم ابتدأ وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾. ثم قال: ﴿كُلُّ ذَا لِمَا كَانَ سَيِّئَةً﴾

فالمراد هذه الأشياء الأخيرة التي نهى الله عنها.

والثاني: أن المراد بقوله: ﴿كُلُّهَا﴾ أي: كل ما نهى الله عنه فيما تقدم.

والمراد بالمكروه هنا الحرام، وليس المكروه المصطلح عليه عند الفقهاء الذي هو دون الحرام. وقد ذكروا في إعراب ﴿مَكْرُوهًا﴾ وجوها:

الأول: خبر ثان لـ ﴿كَانَ﴾، حمله على لفظ كل. والتقدير: كل ذلك كان سيئة مكروها.

الثاني: أنه بدل من ﴿سَيِّئَةً﴾ أو نعت لها؛ لأنها لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بذكر.

الثالث: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: كل ذلك كان مكروها وسيئة عند ربك.

الرابع: أنه حال من الذكر الذي في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهَا﴾، ويكون قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهَا﴾ في موضع الصفة لـ ﴿سَيِّئَةً﴾.

وبالجملة فإن المعنى: كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحا ومحراما عند الله تعالى.

ثم ختم سبحانه ببيان أن هذه الأحكام وحي وحكمة من الله، فقال: ﴿إِنَّمَا مِمَّا أَوْحَى إِلَيْنَا رَبُّنَا مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ الإشارة بذلك إلى هذه الآداب والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله في عباده وخلقه لهم محاسن الأخلاق، والحكمة قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة.

ثانيا: توحيد الله عز وجل وتنزيهه عما لا يليق به:

كما بدأ الله تعالى هذه الوصايا بالدعوة إلى التوحيد، ختمها بالدعوة إلى التوحيد فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْغَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ معطوف على ما تقدم من النواهي، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد كل من سمع الآية من البشر.

وبعد أن نبه سبحانه إلى خطورة الشرك بالله وعاقبته، أتبع ذلك بتقريع من أثبتوا له ولدا، فقال: ﴿إِنَّمَا أَصْغَرُكُمْ زُكْرًا بِالنَّبِيِّ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلِيكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَفُولُونَ قَوْلًا عَصِيًّا﴾ الاستفهام

معناه الإنكار والتوبيخ، والخطاب لمشركي العرب الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله. والمقصود من الآية الكريمة نفي ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه؛ لأن الله عز وجل منزّه عن الشريك والولد والوالد والشبيه. قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ۚ فَعُوذُ اللَّهِ الْفَقَارُ﴾ [الزمر: 5].

ثالثاً: مقاصد الآيات:

ترشد هذه الآيات إلى تحقيق جملة من المقاصد التربوية، منها:

- أهمية التواضع مع الناس وعدم التكبر عليهم وتخلية النفوس من كل الأمراض والأخلاق السيئة، وعلى رأسها الشرك والرياء، والعجب، والكبر. وأن سلامة القلوب من هذه الأمراض تنعكس على السلوك الخارجي للإنسان لأنه يتحرر من الأنانية والحقد والرياء والعجب بالنفس الذي يطغى على النفس فيستعبد لها.
- أن الأخلاق السيئة تسهم في انفكك المجتمع وإضعاف الثقة بين أفرادها، وأن الأخلاق الفاضلة والتواضع خلق كريم يسهم في إشاعة المودة والتآلف بين مكونات المجتمع ويساعد على بناء الثقة التي ينبني عليها التعاون والتآزر بينهم.
- أن شرع الله كله وحي وحكمة، فمن تمسك به فقد اهتدى إلى الطريق الحق، ومن زاغ عنه وانحرف فقد ضل السبيل.
- الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الصفات، ومنها أن يكون له ولد أو أن الملائكة بنات الله. وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة ترد على هذه المعتقدات الفاسدة التي كان يعتقدونها المشركون.

التقويم

- 1 - لماذا نهى الله عز وجل عن المشي في الأرض مرحا؟
- 2 - ما معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّدَالِمَاكَانَسَيِّئَةًعِنْدَرَبِّمَكْرُوهًا﴾ على القراءتين؟
- 3 - لماذا نسب المشركون لله عز وجل البنات؟ وكيف رد الله عليهم؟

الاستثمار

"وَكَّرَرَ تَعَالَى النَّهْيَ عَنِ الشَّرِكِ، فِي النَّهْيِ الْأَوَّلِ ﴿بِتَفْعُلْ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾، وَفِي الثَّانِي ﴿بِتَلْفِيزٍ جَعَلْتُمْ مَلُومًا مَذْهُورًا﴾، وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَذْمُومٍ وَمَلُومٍ أَنْ كَوْنَهُ مَذْمُومًا أَنْ يَذْكَرَ أَنَّ الْفِعْلَ الَّذِي أَقْدَمَ عَلَيْهِ قَبِيحٌ مُنْكَرٌ، وَكَوْنَهُ مَلُومًا أَنْ يَقَالَ لَهُ بَعْدَ الْفِعْلِ وَذِمَّةٌ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَمَا حَمَلَكَ عَلَيْهِ؟ وَمَا اسْتَفَدْتَ مِنْهُ إِلَّا الْإِحَاقَ الضَّرَرَ بِنَفْسِكَ، فَأَوَّلُ الْأَمْرِ الذَّمُّ وَآخِرُهُ اللَّوْمُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَخْذُولٍ وَمَذْهُورٍ أَنَّ الْمَخْذُولَ هُوَ الْمَتْرُوكُ إِعَانَتُهُ وَنَصْرُهُ وَالْمَفْوُضُ إِلَى نَفْسِهِ، وَالْمَذْهُورُ الْمَطْرُودُ الْمُبْعَدُ عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ لَهُ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ، فَأَوَّلُ الْأَمْرِ الْخِذْلَانُ وَآخِرُهُ الطَّرْدُ مُهَانًا. وَكَأَنَّ وَصْفَ الذَّمِّ وَالْخِذْلَانِ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَوَصْفُ اللَّوْمِ وَالْمَذْهُورِ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ ﴿بِتَلْفِيزٍ جَعَلْتُمْ﴾". [البحر المحيط لأبي حيان: 51/7]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- 1 - لماذا تكرر لفظ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ..﴾ في بداية هذه الوصايا ونهايتها؟
- 2 - ما الفرق بين الجزاءين الواردين في الآيتين؟

أتأمل الآيات: 41 - 44 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

- 1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: **صَرَفْنَا - لِيَذْكُرُوا - نُبُورًا**.
- 2 - أبحث في أقوال المفسرين في كيفية تسبيح الكائنات بحمد الله.
- 3 - أوضح دلالة قوله تعالى: ﴿فَلَوْ كَانَ مَعَهُ رُءُوسُ الْإِلَهِ كَمَا تَقُولُونَ إِذْ آلَاءُ رَبِّكَ تَتَعَوَّذُونَ مِنَ الْعَرْشِ سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ على استحالة وجود الشريك مستعينا بقواعد القياس المنطقي